دموع ليلة حمراء

كانت بداية ليلة حمراء .. وكل شيء بدا معدا بمهارة وذرق واتقان ،

وقد تعاونت مركبات الحجرة من عطر نفاذ ، وموسيقى ناعمة ، ولهب حار يتراقص في جوف المدفأة ، وضوء خافت ينبعث من مصباح أحمر أنيق .. تعاونت كل هذه المركبات .. بالإضافة الى الأنثى الساخنة المتعطشة المتأهبة .. على خلق جو أحمر حار يرهف الحس ويؤجج المشاعر ، ويدفع الدماء حارة في العروق .. ويهمس أو يصرخ .. في غير تحفظ ولاحذر بأن فعلا ما - مما يسمونه منكرا - على وشك أن يحدث .

وكانت تجلس متربعة على أريكة منخفضة في ركن الحجرة وقد شمرت كمي وساقي بحامتها الصوفية الفضفاضة المخططة .. التي تعوّدت أن تسرع بارتدائها بمجرد أن تعبر قدماها بابه .. وبعد أن تنزع عنها جميع ملابسها .

وكان يجلس متكئا برأسه على كتفها ممددا ساقيه على الأريكة .. وأحس بأصابعها تعبث فى شعره وبأنفها يمس رأسه وبشفتيها تهمسان :

– أحب رائحة شعرك .

ولم يجب ، ورفع شفتيه فألصقهما بشفتيها فى قبلة قصيرة ثم عاد يحملق فى اللهب المتراقص .

ومرة أخرى عادت تهمس فى حرارة :

– انى أحبك .. حبا كاملا فى أعماقى .. أكتشفه كلما خلوت الى نفسى وحاولت سبر أغوارها .

ومرة أخرى لم يحرك شفتيه .. بالكلام ولا بالقبل .. وطال الصمت فعادت تهمس متسائلة :

– وأنت ؟

– انى أعزك ..

– ومن تحب اذن ؟

– لا أحب أحدا .. أو أحب التى معى ساعة أن تكون معى .

– هذا ليس حبا .

– هذا خير لى من الحب . عندما يحب الرجل عشر نساء .. يمتلك العشر .. وعندما يحب واحدة تمتلكه الواحدة .

– اذن فليس هناك من تمتلكك ؟

– أجل .

– ان في هذا لي بعض العزاء .. وبعض الأمل في أن أمتلكك يوما .

وساد الصمت مرة أخرى ومدت يدها فتناولت كأسا من فوق المنضدة ، ورشفت منه رشفة .. ثم أعادته .. وتساءلت فجأة :

– ألم تحب يوما ؟ ألم يمتلكك أحد ؟ أمضيت حياتك هكذا .. لاتحس بنعمة الامتلاك ؟ أتجلس على قارعة الحياة .. لاتعرف سوى الإيجار .. ايجار نفسك وايجار الغير ؟

وضحك وقال وهو يرفع اليها عينيه :

– الإيجار يمنحنا نعمة الحرية .. ومتعة التغيير والتبديل والانطلاق ، وقتما نشاء وحيثما نشاء .

– ومتعة الاستقرار والسكينة والطمأنينة .. والحب ؟ ما رأيك فيها ؟ .. لقد كنت أظنك من قراءتي لك .. لاتفعل شيئا سوى الحب .. عجيب هذا التناقض بين ما تتوهمه في الكتاب ومانحدثهم عليه .. أمعقول أنك – مع كل ما كتبت – لم تحب أبدا ؟ لابد أن تكون اذن مخادعا كبيرا !

ولم يجب ، وبدا في صمته كأن الحديث لايعنيه فهمست به عاتبة :

– لماذا لاتجيب ؟ حدثني عن الحب ؟

وحوّل اليها بصره ناظرا اليها في شيء من الدهشة وقال متسائلا :

– ماذا بك الليلة ؟

- انى أحبك ، واذا كنت لاتريد أن تبادلني الحب .. فبادلني أحاديث الحب .. ألم تحب ؟

وعاد يحملق في اللهب المتراقص وبدا عليه شرود حزين وأجاب في لهجة مقتضبة وصوت خافت :

- أحببت مرة .

- حدثني عنها .. متى ؟ وكيف ؟

وبدأ كأنما ينفض عن نفسه شبحا جثم عليه وقال وهو يمد يده ليتناول كأسه ويهم بالنهوض :

- دعيني من هذا .. سأروى لك آخر نكتة .

وأحاطته بذراعيها وأبقته حيث كان وقالت في اصرار :

- لا أريد أن أسمع نكتا .. أجلس وحدثني عن الحب ..

وأحس بأصابعها تعاود العبث في شعره وبأنفها يتشممه وبشفتيها تتسللان الى جبينه وعينيه ، وغمرته بموجة حنين جارفة أثارت في نفسه شجنا كامنا وذكرى هاجعة ، ووضع الكأس جانبا وأخذت الألفاظ تنساب من شفتيه بطيئة هامسة كأنما يحدث نفسه .

- بدأت الصلة بيننا بالكتابة .. وكانت تقطن احدى بلدان الساحل ، وقرأت رسائلها أول مرة ضمن عشرات الرسائل التي يحملها البريد الى طالبة صورة أو امضاء أو كتابا أو اجابة لبضعة أسئلة أو حلا لمشكلة .. ورددت عليها في بضع كلمات مهذبة مهديا اياها الصورة أو الكتاب - لست أذكر - الذى طلبته ، وردت على - كما يرد على سواها - شاكرة في رقة .. واسترسلت تعبر في بضعة سطور عن

اعجابها بي وتقديرها لي .. ولم تكن في هذا أيضا تفترق كثيرا عن العشرات غيرها .

وتبادلنا بضعة رسائل تقدير من جانبها وشكر من جانبي ، وبدأ التقدير يتطور الى أكثر من تقدير ، وبدأت الرسائل تطوى في خلال سطورها كلمات الصداقة والأخوة .. والصلات الروحية وغيرها من التعبيرات التي لايفصلها عن الحب سوى خيط دقيق .. أو التي يستغلها الحياء للتعبير عن الحب .

وحتى هذه التعبيرات لم تميز صاحبة الرسالة عن العشرات غيرها فقد كانت كلها تحمل مثل هذا التطور ، وكان علىّ أن أجيبهن جميعا كصديقات صغيرات عزيزات .. ولقد كنت أحس لهن كذلك فعلا ، فكنت حريصا في ردّي على ألا أفرط في الرقة .. فأضحهن أملا أحمق أو أفرط في الجفوة فأصدهن صدا موجعا .

وحملت الىّ احدى رسائلها أمنيتها في أن تراني قائلة : ان تلك قد باتت أقصى أمانيها وأنها لابد مع الزمن أن تنالها . وحتى هذه الأمنية لم تستطع أن تميز صاحبة الرسالة فقد حملتها الىّ غيرها من الرسائل .

وأنا أعرف نفسي جيدا .. أعرف أني لاأستحق شيئا من هذا كله ، ولم أملك الا أن أضحك من نفسي ساخرا أن تكون رؤياى قد أضحت أمنية .. لكائن من كان .. فما بالك بهؤلاء الصغيرات العزيزات اللاتي أحب أنا نفسي رؤيتهن !

وهيأت لي الظروف فرصة السفر الى بلدتها .. ووجدتها فرصة سانحة لأن أراها هي وغيرها من أصحاب الرسائل العجيبة اللاتي يقطن نفس البلد ويتمنين رؤيتي . فأرسلت اليهم أنبئهن بقرب قدومي اليهن .

وكان علىّ اما أن ألقاهن جملة فى موعد أحدده لهن فى الفندق الذى أنوى النزول فيه .. أو ألقاهن فرادى ، كل فى موعد مختلف ، وكان لكل طريقة عيوبها ومزاياها . فالأولى تفضل الثانية فى أنها توفر علىّ الوقت والمجهد فى الحديث ، والثانية توفر علىّ الحرج فى جمعهن سويا وفى خذلانهن عندما ترى كل منهم أنها ليست الوحيدة التى أحصها بالكتابة واللقاء .. وأنها لاتعدو واحدة مجهولة ضمن بقية المعجبات .

وفضلت الطريقة الثانية ، فقد خجلت أن أحيط نفسى فى الفندق بمظاهرة فتيات .. ووجدت أنى أول من سيحس بالحياة والحرج أمامهن .

واخترت منهن خمسا .. كنت أحس من كتابتهن شيئا - حرارة أو لطفا أو رقة - يميزهن عن غيرهن ويجعلهن أقرب الى نفسى .

وكانت هى .. ضمن هؤلاء الخمس .. اللاتى كتبت اليهن أنبئهن بقدومى وأحدد موعد اللقاء .

ولم يكن لدىّ من الفراغ سوى أمسية واحدة كان علىّ أن أقسمها بينهن ، فحددت المواعيد الخمسة بفاصل ساعة تبدأ من الرابعة بعد الظهر وتنتهى فى الخامسة .. وقدرت ألا يزيد لقائى مع أية واحدة عن نصف ساعة تاركا ربع ساعة بين رحيلها ووصول الأخرى حتى لايحدث ارتطام بينهن .

وذهبت الى البلدة وأتممت أعمالى بها ، وقبيل الرابعة فى الأمسية الموعودة اتخذت مجلسى أمام منضدة فى ركن الكراس المطل على

الشاطىء وكنت قد كتبت ورقة بأسمائهن وأمامها موعد لقاء كل منهن حتى لا أخلط بينهن .

وكنت أعرف سلفا أى نوع من الفتيات أوشك أن ألقى ، ولم أحاول أن أخدع نفسى فأمنيها بمتعة منتظرة .. بل أقنعتها بأنها تؤدى واجبا لابد من تأديته .. ولم أكن أتوقع قط أن أبصر بهن أى نوع من أنواع الجمال والإغراء .. وأكثر من هذا كنت أعرف من خلال رسائلهن ، سيذهب بها الحياء والارتباك الذى سيصيبهن عند أول لقاء لى .. وأن على أن أمضى نصف الساعة التى سأجلس خلالها مع كل منهن فى دفعهن الى الحديث وفى خلق موضوع له .

وحلت الرابعة – موعد قدوم الأولى – وأنا أرقب مدخل التراس ، محملقا فى كل قبيحة صغيرة مرتبكة ، معتمدا على أن تعرفنى هى فتتجه الى .

ومضى ربع ساعة ولم يحضر أحد .. ونصف ساعة ولم يحضر أحد .. وبدأت أسترخى فى مقعدى مخرجا الأولى من حسابى ، تاركا لنفسى فرصة ربع ساعة راحة قبل أن أبدأ فى انتظار الثانية .

ولكن .. لم يكد يتجاوز العقرب النصف ببضع دقائق .. حتى لمحت فتاة تجتاز المدخل ووجدت أعصابى المسترخاة تتوتر ، واحساسى يرهف .. وأخذت أرقبها جيدا .

ولم أتوقع قط أن تكون احدى المقيدات فى جدول مواعيدى .. اذ لم يكن ينطبق عليها الكثير من المقاييس التى فرضتها عليهن والصور التى تخيلتها لهن .. حقيقة كانت الى حد ما صغيرة .. والى حد ما .. مرتبكة مترددة ، كمن تبحث عن شيء .. ولكنها لم تكن قبيحة أبدا ..

بل كانت جميلة .. الجمال الأمثل الرقيق الذى يحس شيئا فى أعماقى .. والذى أشعر أن كل حواسى قد شدّت اليه .

وأخذت أرقبها .. ليست مراقبة منتظر موعدا .. أو متوقع لقاء .. بل مراقبة ملهوف مأخوذ .. متناسيا كل شىء عن معجباتى وعن جدول مواعيدى .. وتطايرت منى كل مظاهر الكبرياء والغرور الذى كان يفرضه علىّ الموقف فرضا .

ورأيت خطواتها تتباطأ وعيناها تبحثان فى حيرة بين المناضد ووجدت الحمق البيانى الذى لا أستطيع التخلص منه يدفعنى الى أن أتمنى أن تكون احداهن .. وأن أذهب اليها لأقول لها أنى أنا هو أنا .. وقبل أن أراجع حماقتى الصبيانية كانت عيناها – فى جولتها الباحثة – قد وصلتا الى الركن الذى أجلس فيه .. والتقتا بعينى .. وفى ثوان معدودات تصاعد الدم الى وجهها ، وافتر ثغرها عن ابتسامة جميلة وتلألأت عيناها بفرحة ممزوجة بدهشة .. ثم وجدتها تتجه الىّ فى خطوات سريعة وجلة .

ونهضت أتلقاها فى لهفة أطاحت بكل ما رسمته فى ذهنى من سمات التؤدة والهيبة التى كان يجب علىّ أن ألقى بها معجبى . وشدّت على يدى ، ومازالت تعلو ثغرها الابتسامة الحلوة الخجلة ..وقالت لى :

– لم أكن أتوقع أن أميزك بهذه السهولة .. انى أشعر أنها ليست المرة الأولى التى أراك فيها .. لقد عرفتك بمجرد أن التقت عيناى بعينيك .. وأنت .. أعرفتنى ؟

وقلت وأنا أقدم لها مقعدا وأجلس قبالتها .. محدقا فى وجهها :

– طبعا عرفتك .

ولم أكن مدعيا في قولي .. فقد أحسست أني عرفتها من الصورة المرسومة في باطني منذ عشرات السنين .

ورمقتني بعينيها الحلوتين الباسمتين وقالت مازحة :

– من أكون ؟

ولمحت الساعة في معصمي .. كانت الخامسة الا ربعا .. وأحسست أني قد أسقط في يدي .. من تكون ؟ الأولى .. أم الثانية ؟ .. كوثر .. أم بثينة .. الاحتمالان جائزان ، فقد تكون كوثر متأخرة في موعدها .. أو بثينة مبكرة فيه .

ولو قلت لها هذه وكانت تلك .. أو تلك وكانت هذه .. لجرحت مشاعرها .. وأظهرت أني لا أتوقع مجيئها هي .. بل كنت أنتظر أخرى .. وأني أخطأت فيها .. وتحتم عليها الرحيل لتترك مجالا للأخرى التي قلت اسمها .

وكرهت أن أفقدها بعد أن أقبلت عليّ بمثل هذه اللهفة ، وبعد أن أقبلت أنا عليها بلهفة أشد وكأني لا أنتظر سواها .

وكانت لم تزل تنظر اليّ في ابتسامتها الرقيقة ، وقد بدت عليها أقصى مظاهر الرضاء والسعادة .. وعادت تسأل :

– لم تقل من أكون ؟

– وكان عليّ أن أقول شيئا لايفضح أمري ، وأن أستدرجها في الحديث ، علها تفصح في أقوالها عمن تكون .

وقلت محاولا اكتساب وقت بمنحني فرصة التفكير :

- أتعتقدين حقا أني لا أعرف من تكونين ؟

ومرّ بذهني أن خير طريقة أعرفها بها هو أن أعرف منها حقيقة موعدها ، فاذا كان الرابعة فهي كوثر ، واذا كان الخامسة فهي بثينة .

وقبل أن تجيبني أردفت قائلا :

- كيف لا أعرفك .. أليس بيننا موعدك ؟

- أجل .. لقد تأخرت عليك .. وكنت أخشى الا أجدك .

- أتتأخرين دائما في مواعيدك ياكوثر ؟

وأحسست بموجة من السعادة تغمر وجهها وأنا أنطق باسمها .. ولم يكن من العسير علىّ أن أعرفه وأغامر بنطقه بعد أن اعتذرت عن التأخير ، فأيقنت أنها لابد أن تكون فتاة الرابعة كوثر .. ولكني أحسست بمشكلة جديدة تطل برأسها بيننا .

كانت الساعة قد بلغت الخامسة الا الربع ، ولم يبق سوى ربع ساعة على الموعد الثاني ، واذا كانت فتاة الرابعة قد تأخرت نصف ساعة فليس هناك من يضمن لى أن فتاة الخامسة لن تأتي مبكرة عن موعدها .. ولاسيما بعد أن بت أتمنى تأخيرها ، والأقدار تأبى دائما أن تنيلنا مانتمنى .

وتملكني قلق وحيرة ، فقد كرهت أن يحرمني مخلوق - أيا كان - من هذه الأمنية العذبة الجالسة أمامي .. وأحسست أنه لاتوجد على ظهر الأرض قوة تستطيع أن تنزعها مني بعد بضع دقائق .

ووجدت هذا الشيء الذى أثارته في أعماقي .. يملؤني رغبة في أن أفر بها بعيدا .. وتلفت حولي وأشرت الى الجرسون ، وبدل أن

أصيب بها شيئاً فقدته حسابه عند طفلي وبمنتهى السماحة ، وبمنتهى الحمق ورقة الذوق نهضت قائلاً :

- المكان مزدحم (ولم يكن مزدحماً) أيوجد مانع من أن نمشي على الشاطىء . أو نذهب إلى أي مكان آخر ؟

ويبدو أن فرحتها بلقائي كانت على استعداد لتغطية كل مساوئي وتصرفاتي غير المصطنعة ، فقد رأيتها تنتشي في استسلام ومرات يكسو وجهها الإشراق والسعادة والابتسامة المتلألئة . وأحسست بالراحة تملأ نفسي وأن أسير وإياها متلاصقين على رمال الشاطىء . ووجدتني أستعيد رسائلها إلى ذهني .

كانت أرقهن قولاً ، وأحرهن مشاعر وأسمحهن روحاً ، وأشدهن صلة بي وأجرأهن في الحقوق عليّ ، ولم أكن أشك - من سابق تجاربي - في أنها لابد أن تكون أقبحهن شكلاً فقد علمتني التجارب أن الجمال يبعد غالباً ما يتناسب تناسباً عكسياً مع جمال القلب ، وأن الله يوزع المزايا على الناس بقدر المتساوي لا فيه شاذة يتجمع فيها الفضل كله أو السوء كله

وتحدثنا كثيراً ، ولم يصعب عليّ أن أزيل عنها لهفة الأولى وأن أجعلها تؤمن بسهولة بعد أن كانت - على حد قولها - لا تصدق أنها معي وأنها تسير بجواري جنباً إلى جنب .. بأنها أصبحت أقرب الأصدقاء إليّ .

نعمت هنا بلا جهد ولا كلفة لم أتكلف سوى أن تركت نفسي على سجيتها وليس أسهل على نفسي من الانطلاق على سجيتها

عندما تكون بجوار شخص تحبه ، ولقد أحسست من اللحظة الأولى التي رأيت فيها هذه المخلوقة أني أحبها .

وأنا على مر السنين وعلى ما يفرضه على السن من تؤدة واحتشام لا أستطيع أن أنزع نفسي من طفولتي وصباي في لحظة التحامي مع من أحب ، فانطلقت مع الخطوة الرقيقة المرهفة السائرة بجواري أمرح وأصبحت خارجا عن كل قيود الكلمة والزمن داخلا في نفس الشاعرة الدائبة .

وقلت لها الكثير ، وقالت لي الكثير .. حدثتني عن أمها وأبيها وأخواتها ومدرستها وزميلاتها ، ثم عمدت بعد قراءتها لي وكتاباتها التي وأحاسيسها نحوي .

وكان البحر قد احتضن الشمس وأخذ في ابتلاعها على حافة الأفق ، وصبغت به الظلمة لتمسح بقايا الدماء المنتشرة في الشفق . ودون أن نشعر وجدت الظلام يحوطنا فيما أحاط ، واستقر بنا المقام على حافة صخرة تتطاير من حولها الرذاذ وتتلاطم الموج ورأيتها ترفع إلي وجهها وعلى شفتيها ابتسامة مشرقة وهي تتساءل في استحياء

لم تقل لي حتى الآن .. كيف وجدتني ؟

- لم أقل لك حتى الآن ؟ أحقا تعنين سؤالك هذا ؟

- أقلت لي ؟

لم أقل لنفسي ولكن لم تحسي أنت كيف وجدتك ؟ وبعد أن نسيت نفسي ونسيت كل ما حولي وجدت أسير معك كصبية العشق تسائلني كيف وجدتك ! لقد كان معروفا لا يريد

لقائى لك عن نصف ساعة أعتذر لك بعدها بأنى على موعد ، ثم ألقى بعدك أربع معجبات أخريات ، ولكنى لم أكد أراك حتى خدعتك وفررت بك الى هنا . أعرفت الآن كيف وجدتك ؟

وبدا على سيمائها التأثر وأطبقت شفتيها على ابتسامتها الدائمة . وسمعتها تهمس فى سرور وقد أطرقت برأسها وحدقت أسفل الصخرة

– عجيبة هذه الأحلام !
– كيف ؟

– لقد حلمت ليلة أمس أنى معك . كان حلما لذيذا ما قضيت فى حياتى لحظات أمتع منه .

– قصيه علىّ .. لعلنى أحققه لك .

ورفعت رأسها وارتسمت على شفتيها ابتسامة مستحيية وقالت فى حياء لذيذ :

– لا أستطيع . انى أخجل أن أقصه

– أين كنا ؟

– فى حديقة دارنا ، وقد أتيت تسأل عن عنوان مجهول ، فعرفتك ، وادعيت أن عنوانك هو ما تريد ، وتحايلت على ادخالك وجلست معى فى الأرجوحة لكائنة أسفل حجرتى التى تعودت أن أقرأ فيها كتبك ، وعندما اعترفت لك بخدعتى قلت لى تعرفها وأنت تريدنى أنا ، وكان الليل نجيما ، والسكون سائدا ، والقمر مطلا ، وجلسنا نقرأ سويا . ثم أدرت لك الموسيقى التى كنت أطلب منك فى رسائلى سماعها . وسألتك أن تنهض لترقص معى .

وصمتت مطرقة برأسها ، فعدت أتساءل :

وبعد ؟ أكملي الحلم ، حتى أحققه لك

لا أستطيع

أنهضت معك ؟

- وأشارت برأسها :

- أجل

- وأمسكت بيدك ؟ ..

ومددت يمنى فأمسكت بها كفها ، ثم عدت أتساءل

- وضممتك بيدي ..

وأطبقت تدرعى الأخر في رفق ووجدتها تغمض عينيها كالمستغرقة في حلم ، وهي تشير برأسها شارة خفيفة (أجل)

وفي صمت وضعت شفتي على شفتيها في لمسة خفيفة وبدا في وجهها في الظلام كأنه وجه قديسة وقفت برهة قبل أن تفتح عينيها لتعرورقا وتهمس في بهجة دائبة :

لست أدري كيف أشكرك .. ما ظننت أن حلمي سيحققه الله بمثل هذه السرعة ،

• افترقنا ليلتذاك ، وعدت وأنا أحمل أعذب ما حمل قلب بشر من حب .

واستمر الحب يتبادل على مرّ الأيام حب حقيقي كأعنف ما يكون الحب وأحرّ ما يكون الهيام ، وانكمشت رسائل المعجبين بعد أن تركز كل ردى على رسالة واحدة خيرة منتهية

وقد يبدو الحب غير مكذب، الكتبي ، وقد يثير الدهشة والعجب ألا يسقط ماهرا محنك خبيرا بالنساء مدعى بتجاربه عند قدميه سوى طفلة بريئة عاطفة من كل قدرة وخبرة .. ولكني أعتقد أن هذا الشيء يجب ألا يبعث على الدهشة فلست أرى هناك مقاييس معينة يمكن أن تخضع لها الحب بل يبدو لي أن المسألة على نقيض ، وأن أخطر أنواع النساء ، وأشدهن تأثيرا على الكتاب والفنانين وأصحاب التجارب هن أشدهن سذاجة وبراءة وبساطة .

على أية حال ليس أحد هناك ما يدعو لمناقشة ، أو التبرير أو الاعتذار فالأمر قد وقع ولم يكن هناك مفر من تسليم بالواقع وبدأت أدبر أمرى وأنظم حياتى على أساس جديد لتحديد حالة إنسان محب جاد في حبه مخلص لمن يحب

وبدأت بعد عمر طويل من العبث واللهو مضيت حاله من الزهد والقناعة وتساقطت الرفيقات من حولي كما تساقط أوراق الشجر واستطاعت الفتاة الصغيرة أن تدفع عنى من الخطايا ما عجزت عنه مئات الصلوات وعظات الرسل .

وبلغت بى حدته فى مشاعرى إلى الحد الذى هدت على به حريتى ولم يعد الزواج فى نظرى مصدر يحطم بحبه وبه بحب انقاذها ، بل وجدت بطبيعتى فى الزواج تعقيب وأن على عقب وتد تفكيرى ينتهي الى أنه خير وسيلة للاستمرار والعاطفة

وكنت أذهب للقاء في كل فرصة تسمح لي .. صيفا وشتاء ، ولم يبعد اللقاء بين صخرة الشاطئ أو ركن في أحد مقاهيه .. ولا تعددت علاقتنا ... الشهامة .. التي حققت بها أول حلم

وبدأنا نطرق حديث الزواج طرقا خفيفا ، وحاولت في بحثه في أول الأمر ... مما يعرفه عن رأيي وطريقة حياتي التي أكرهها .. وقناعتها بما كان بيننا .. وعدم محاولتها التطلع الى تجاوزه أو الطمع في أكثر منه .

ورد حديث عن الزواج وبعدئذ ، ورغبة البيت والأولاد في حياتنا ووسائله ، حتى انتهى الأمر ... الى قوله كفكرة ، ثم تأكيده وتحديده كأمر واجب منه .

ولم يبد ما يدفعنا في الحب .. أي نوع من أنواع التوقيع نقف أمام رغبتي في الزواج . لا إرادة هي ، ولا إرادتي أنا ، ولا شيء أبدا . كل ذلك كان حصى صغير أمام تيار جب

وحملني القطار اليها ذات ليلة .. بعد الاتفاق على لقاء يتبعه تقدم لطلب يدها .. وجلست في عربة القطار أضيع الوقت بمراجعة مقال وصفحة بروفات ثم أعدتها الى الحقيبة وأخرجت بعض الرسائل التي تسلمتها قبيل الرحيل ولم يسمح لي الوقت بفضها

ولم أجد بالرسائل جديدا .. بعض الطلبات وبعض الأسئلة وبعض المشاكل .. حتى توقفت أمام أحدها ومررت بصري بخفة على بضعة الأسطر الأولى .. ثم وجدتني أتمهل وأتمعن في القراءة وقد تملكتني الدهشة .

بي أذكر الرسالة كلمة . كلمة . لقد كتبت كما يلي

(لا أريد أن أثقل عليك بكلام كثير لا أجد في النفس الصبر عليه ولا الجهد له . كان يجب أن أكتب إليك من قبل لأمنعك من الاستمرار في الطريق الذي مضى بك إلى ما وصلت إليه ، ولكن لم يخطر لي ببال أن العلاقة مستمرة ، وأن طريق وحيد مرسوم بمسلككما سوف ليؤدي بكما إلى هذه النهاية المفجعة . كل ما رأيته هو رسالة بعثت إليها تبينت منها أنها رد على إحدى رسائلها ، وأحسست بالرجفة عندما قرأت إمضاءك . ولم أستطع أن أجرحها عنك ، ولو مرة بالكشف عما سميته عيشك أصلا) .

(ما أحببتني ... كان يجب أن أقول لك أولا من أنا ... ولكن افترضت أنك تعرفني كما أعرفك ، أنا الآن – أم كوثر ... ولعل هذا تعريف كاف بالنسبة لك . لأنك لاشك تعرف كوثر جيدا ... تشهد على ذلك كومة رسائلك المتجهة إليها)

(أظن كوثر قد حدثتك عني ... وأظنك قد كونت في ذهنك صورة معينة لي . وإن كنت أعتقد أنه لا يمكن أن تنطبق بحال على الصورة الواقعية لي . والتي يمكن لو قمت اليوم دفعتك أن تحتضنها قبلة ضمن عشرات أو مئات تقدمات فيه)

(لست أدري ما إذا كنت أستطيع تذكيرك بنفسي . وإن كنت سأحاول . لقد فشلت لحب عندك أن تأخذ كلامي قضية مسلما بها ، فأنا أذكرك جيدا ، لأنك تمثل لي خطيئة واحدة في حياتي ... بينما أمثل في حياتك واحدة من آلاف الخطايا

(لقيتك أول وآخر مرة وأنا حديثة عهد بالزواج فى زيارة لى بالقاهرة . وكنت شديدة التأثر بك وبكتاباتك .. تأثرا قد يبلغ حد الوله . ودعوتنى الى زيارتك لتناول الشاى .. ولم أستطيع رفض الدعوة .. وأنا أجد فى لقائى بك شبه معجزة .. وكانت لم تزل أمامى بضع ساعات على القطار .. وذهبت معك بعد أن دعتنا واسطة التعارف .

(وضمنا واياك بيتك الساحر لبضع ساعات . لا أعتقد أنك تذكرها .. أو تذكرها كعينة لمئات الساعات المشابهة ، ومع ذلك فما زلت أذكرها أنا بعد كل السنين الطوال كأنها حدثت بالأمس ، أذكر أريكة الركن الخضراء المنخفضة واللهب المتراقص فى المدفأة والأشعة الهادئة المنبعثة من المصباح الأحمر والموسيقى الناعمة .. أذكر كل هذا جيدا ، وأذكر اللوحة فوق المدفأة وأذكرك ترنو الىّ فى لهفة وأذكر استسلامى بلا مقاومة .. وأذكر بعد هذا أمتع ساعات عمرى .

(وتركتك بغير ندم والى غير رجعة ، وأحسست أنى قد ذقت طعم شىء .. كان يتحتم علىّ أن أذوقه ، واعتبرت المسألة تجربة أولى وأخيرة فى سبيل ما يسمونه بالخطيئة .

(ونسيت كل ما كان من أمرى معك .. وصممت نفسى على القراءة لك خشية أن يدفعنى الحنين اليك مرة أخرى .. وأنجبت ابنتى الوحيدة .. ومرت بى السنون وأنا مثال للزوجة الصالحة والأم المثلى التى لم تشب حياتها شائبة .

(وعندما بدأت ابنتى القراءة لك لم أحاول أن أصدها فقد كنت أجدك - مع السنين التى كرت ، والبعد الذى طال - أناى من أن تكون مصدر خطر حتى وجدت رسائلك اليها وعلمت أنها كتبت اليك فنهيتها عنك .

(ومرت الأيام .. وأنا آمنة مطمئنة .. لم يطف شبحك بذهني مرة واحدة .. حتى وجدت بالأمس .. كومة رسائلك اليها .

(عجيب هذا الذى حدث ! كيف ؟ ! ومتى ؟ ! ولماذا ؟ ما الذى دفعك اليها ؟ وما الذى دفعها اليك ؟

(ولقد رأيت صورك ، وقرأت رسائلك ، وعجبت في نفسى كيف استطعت أن تحتفظ باشراقة وجهك وفتوة روحك ، ونضارة قلبك .. ان السنين السبعة عشر لم تغير فيك كثيرا .

(وأدركت ببساطة كيف أحبتك .. ولم يصعب علىّ بالطبع أن أدرك كيف أحبتها .

(ان المسألة في نظرى لاعبار عليها لاسيما وقد كنت معها – على غير ما كنت مع أمها – مهذبا أمينا .. وقصدت واياها الى الطريق الصواب وتعاهدتما على الزواج واتفقتما كما أرى في آخر خطاب على أن تتقدم لطلبه يدها .

(كل هذا معقول .. ولكن ثمة أمر بسيط أريد أن أنبهك اليه . أمر قد تكون غافلا الذهن منه .

(لقد حملت فى كوثر فى الشهر الذى لقيتك فيه ، ولست أستطيع أن أجزم بالضبط من يكون أبوها أنت أم روحى ؟ ولكن الشىء الواضح الذى أستطيع أن أجزم به .. هو أنى لم أحمل بعد هذا من أبيها أبدا .

(أنا لا أستطيع أن أجزم بشىء .. وقد يكون أبوها هو فعلا أبوها .. وقد يكون أصيب بالعقم بعد ذلك .. أجل قد يكون ذلك ، وقد لايكون .

(وانى لم أفكر فى المسألة سوى اليوم ، وكوم الرسائل أمامى ومن ورائه شبحك يتقدم لطلب يدها .. والشك يكاد يقتلنى ..

(لماذا ؟ من بين بقية بنات الأرض ، يقع اختيارك عليها ؟ ! .

(لقد عرضت عليك الأمر ، وسواء ذكرتنى أم وجدتنى ضائعة فى غمار مغامراتك .. فثق أن ما قلت هو الحق .

(واذا استطعت بعد كل ما قلت أن تقاوم الشك فتقدم لطلب يدها .. انى فى انتظارك .

وانقضت الصاعقة لتتركنى حطاما عاجزا عن الحراك والتفكير ، وأطبقت على رأسى بكتفى أمنعه من الانفجار والتطاير .. وأحسست بصوت عجلات القطار المنظمة كأنها مطارق تهوى علىّ وأحسست من تباطؤ سير القطار بأنه يوشك أن يصل الى المحطة .. وودت لو استطعت أن أوقف القطار أو أعيده من حيث أتى .. ولكن أضواء المدينة بدأت تتواتر مؤذنة بالوصول .

ووجدت نفسى قد جمدت فى مقعدى كأنى قد أعجزنى شلل ، ومر الوقت بطيئا وأنا جاثم لا أتحرك حتى دق الجرس وعلا الصفير ، وبدأت عجلات القطار تدور وأخذ القطار يتباعد فى بطء .

وعلى ضوء أحد المصابيح لمحت وجهها يبحث فى لهفة بين النوافذ وفجأة التقت عيناها بعينى وأنا متصلق بالمقعد فى جلستى الصامتة العاجزة فهتفت باسمى فى صرخة مجنونة وانطلقت تعدو وراء القطار .

وأخذت أرقب شبحها يتضاءل وصرخاتها باسمى تخفت رويدا رويدا حتى غلبتها ضجة القطار وابتلعتها الظلمات .

وساد الصمت .. صمت أليم موجع .. ومد طرف لسانه يلعق دمعة ساخنة مالحة .. انسابت حتى شفتيه .. ولم تستطع صاحبته أن تكبح جماح دمعها .. تركته ينساب في غزارة .

وكان هو أول من تملك نفسه .. ورفع اليها بصره وقال في مرارة :

– ألم أقل لك .. ان الإيجار خير من الامتلاك .

* * *